مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 342 - 357 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التّكثيفُ الدّلالي وَتَوالُدُ المعَانيّ في قَصيدَة الرَبِيْعِيّة لشَيخِ الشّعر الملْحُون أَحمَد الغَرَابْلِي

Semantic Condensation and the Generation of Meanings in the "EL–Rabiea" Poem By Al–Sheikh of Malhoon Poetry, Ahmed Al–Garabli

مفيدة بن وناس[1] * / عبد اللّطيف حني [2]

Moufida Benounase [1] / Abdellatif Henni [2]

مخبر التراث والدراسات اللّسانية

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)،

University chadli bendjedid ,ETAREF-Algeria

mofida2010@gmail.com[1] / henni2006@gmail.com [2]

تاريخ الإرسال: 2022/02/25	تاريخ القبول: 2022/03/30	تاريخ النشر: 2022/06/02

مُلخّص البَحث

يتدثّرُ الشعرُ الملحون المغاربي بالعَديدِ من الجماليات الفنية والأدبية، التي تجعلهُ مجالا خصبًا للدراسات النقدية، وعليه تتنزلُ هذه الدراسة للبحث في إحدى الأدوات الفنية التي يَستعينُ بها الشاعرُ لنقل رؤاه وأفكاره للمتلقي بصورة تجعلهُ يتفاعلُ معها ومع جمالياتها، وهو التكثيف الدّلالي، وذلك بالوقوف عليه في الشعر الملحون المغاربي متخذا من قَصيدة الرَبِيْعِيّة للشيخ أَحْمَد الغَرَابْلِي أُنموذجا، والتي تتغنى بفصل الرّبيع وأجوائه وطبيعته الخلابة بمختلف عناصرها ومكوناتها، للوقوف على طريقة تقديم الشاعر لموضوعه بألفاظ موحيّة وعبارات دالة تعكسُ تحكمهُ في التكثيف من أجل تعميق الدّلالات وتوليد المعَاني.

الكلمات المفتاح: تكثيفُ، دّلالي، شعرُ ملحونُ، رّبيع، دلالات، الغَرَابْلِي.

Abstract :

Maghreb salty poetry is covered with many artistic and literary aesthetics, which makes it a fertile field for critical studies, and accordingly this study descends to search for one of the artistic tools that the poet uses to convey his images and ideas to the recipient in a way that makes him interact with it and its aesthetics, which is semantic condensation, by standing on it in The poem of spring by Sheikh Ahmed Al-Gharabli, which sings about the spring season, its atmosphere and its picturesque

* مفيدة بن وناس mofida2010@gmail.com

nature with its various elements and components, standing on the way the poet presented his subject with suggestive words and expressions that reflect his control of condensation in order to deepen connotations and generate.

Keywords:Condensation, semantic, salted poetry, spring, semantics, gharabli.

أولا– مُقدمة :

ارتبط الشاعر بالطبيعة فقد وُلد في رحابها وبين أرجائها ومفاتنها، فتفاعل معها وتناغم مع جماليتها المتنوعة والمنتشرة والمترامية، فألهمته بالشعرية وزودته بالجمالية في القول والتعبير، وراح يستلهم من تنوع تضاريسها وأشكالها موضوعاته، لذلك كانت الطبيعة موضوعا قارا وثابتا في أغلب دواوين الشعراء ومنهم شُعراء الملحون المغاربي؛ فقد انطلقوا من أحضانها ومعالمها، فكانت تربة خصبة ترعرع فيها خيالهم ونما بصفة دائمة، فتوالدت لديهم المعاني وتكثفت الدلالات للتعبير عمّا يجيش في صدورهم من مشاعر وأحاسيس، ونقل أفكارهم للمتلقي بكل جمالية واحترافية.

ومن شعراء الملحون الذين اعتمدوا في نصوصهم على وصف الطبيعة والتغني بجمالياتها الشاعر الشيخ أَحمَد الغَرَابْلِي[1] أحد فُرسان الشعر الملحون المغاربة المعروف بمهارته الشعريّة في البيئة المغاربية وقُدرته التعبيرية بين أصحاب النسج والصنعة، وعليه تتأسسُ دراستنا على إشكالية رئيسة مفادُها:

–مَا مَدى نجاح الشاعر أَحمَد الغَرَابْلِي في وصف الرّبيع وأجوائه وطبيعته؟ –وكيف استطاع تفعيل التكثيف الدّلالي وتوالد المعاني من خلال قصيدته المشهورة "الرَبِيْعِيّة"؟

وتَسعى دراستُنا إلى تحليل القصيدة والوقوف على إمكانات الشاعر التعبيرية والغوص في معانيها ودلالاتها، لتأكيد تدثّر الشعر الملحون المغاربي بمختلف الجماليات التعبيرية، وعُمق أفكاره والتواصل مع المتلقي وقُدرة الشاعر على تفعيل آليات عُلوم اللغة والاستفادة منها ومن تنوعها لشحن نصه بالدّلالات والمعاني، التي تُغني عن الاستطراد والتعليل والتفسير، وتجعله يقصدُ الفكرة بالإشارة والتلميح.

وقد اعتمدت دراستُنا على العناصر التالية: بسطٌ لقصيدة الرَبِيْعِيّة، ثم مَفهومُ التكثيف الدّلالي لغةً واصطلاحًا، ثم تحليلُ فاعلية التكثيف الدّلالي في وصف الرّبيع، من خلال الوقوف على ولادة فصل الرّبيع، ووصف الأزهار والوُرود، ووصف الطيور، وأخيرا الإشادة بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا–قَصيدَةُ "الرَبِيْعِيّة" للشيخ أَحمَد الغَرَابْلِي:

إنّ المطلع على المدونة الشعرية الشعبيّة عُموما يجد فيها ذلك التوظيف المكثف للطبيعة ومعالمها؛ إذ لم يتخلف شاعرُ الملحون المغاربي عن التوظيف الجمالي للطبيعة وفصولها وخاصة فصل الرّبيع الذي وصفه الشعراء على مُرور العصور الأدبية، فراحوا ينسجُون مقطوعات وقصائد في التغني به وبأزهاره وحلته الملونة الباهرة، ولعلّ شاعرَ الملحون المغاربي كان من أولئك المبدعين الذين خَاضُوا في هذا الغرض البارز؛ فأبَانُوا عن مقدرة شعرية تُعبر عن شخصيتهم ونظرتهم الخاصة.

ومن الشُعراء الذين أبدعوا في نسج قصائد في التغني بفصل الرّبيع وأجوائه شاعرُ الملحونِ الشَيخ أَحمَد الغَرَابْلِي، الذي استطاع بشاعريته الفذّة ولغته الشعبية القريبة جدا من الفصحى التعبير عن مشاعره وأحاسيسه تجاه الطبيعة الماتعة؛ إذ استطاع بعثَ الحركية والحيوية في الطبيعة الجامدة من خلال التكثيف الدّلالي، راسما صورًا فنية ممتعة ومميزة، كما تمكن الشاعر من توليد المعاني من خلال الاستعانة بمعجم لغوي يعكسُ معرفته الثقافية وخبرته في الحياة.

وقد برعَ الغَرَابْلِي في وصف الرّبيع ومَظاهره في قصيدته "الرَبِيْعِيّة" التي تتربع على خمس وثمانين بيتًا (85)، بلغة شعبيّة تقتربُ بشكل كبير من الفصحى ولها صلة قوية بها، حيث يقدم شاعرنا تجربته الشعورية مع الطبيعة، وينقل لنا حالته النفسية وتجاوبها مع الأجواء الرَبِيْعِيّة، مُعاينا ما يدور حوله من حياة تمثلت في الزُهور والورُود والطيُور، مستحضرا قدرة فاطر السموات والأرض، شاكرا له هذه النعم، مُصليا ومُسلما على الحبيب المصطفى.

ثالثا–مَفهُومُ التّكثيف الدّلالي:

1–المفهُومُ اللّغَوي:

قدمت المعاجم العربية المعنى اللغوي لمصطلح التكثيف، بالاعتماد على الفعل (كثف)، حيث جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) في تفسيره لمادة (ك ث ف)، «كثف :كَثُفَ كَثافةً، أي :كثر والتف .والكثيف :اسم يوصف به كثرة العسكر والسحاب والماء. وقد استكثف الشيء، أي :اشتد. وكذلك في الأمور»[2].

ويرى صاحب تاج العروس أن التكثيف من مادة كثف أي الحشد والتجميع والغليظ، فيقول: «كَثْفُ: الجَماعَةُ وَمِنْه حَدِيثُ ابنِ عَبّاسٍ: أَنّه انْتَهَى إِلَى عليٍّ رضيَ الله عَنْه يومَ صِفّين، وَهُوَ فِي كَثْفٍ، أَي :حَشْدٍ وجَماعَةٍ .والكَثافَةُ كسَحابَةٍ :الغِلَظُ. وَقد كَثُفَ، الشيءُ ككَرُمَ، فَهُوَ كَثِيفٌ :غَلِيظٌ ثَخِينٌ كاسْتَكْشَفَ .وقالَ اللَّيْثُ: الكَثافَةُ: الكَثْرَةُ والالْتِفافُ والفعلُ كالفِعْلِ .والكَثِيفُ :اسْم كَثْرَتِه »[3].

وللمعنى نفسه يذهب ابن منظور(ت711هـ)، فيقول: «كثف :الكَثَافَةُ: الْكَثْرَةُ والالتِفافُ، وَالْفِعْلُ كَثُفَ يَكْثُفُ كَثَافَة، والكَثِيف اسْمُ كَثْرته يُوصَفُ بِهِ الْعَسْكَرُ وَالْمَاءُ وَالسَّحَابُ ... وَيُقَالُ :اسْتَكْثَفَ الشيءُ اسْتِكْثَافاً، وَقَدْ كَثَّفْتُه أَنا تَكْثِيفاً.... الكَثِيفُ والكُثاف الْكَثِير»[4]، بمعنى الالتفات والتكور على الشيء والتجمع، ويقصد به أيضا: «الْكَثِيرُ المتراكِبُ الْمُلْتَفُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، كَثُفَ كَثَافَة وتَكَاثَف. وكَثَّفَه : كثَّره وغلَّظه... والكَثَافَةُ :الغِلَظُ. وكَثُفَ الشَّيْءُ، فَهُوَ كَثِيف، وتَكَاثَفَ الشَّيْءُ .وَفِي صِفَةِ النَّارِ:لسُرادِق النَّارِ أَربعَةُ جُدُرٍ كُثُفٌ؛ الكُثُفُ :جَمْعُ كَثِيف، وَهُوَ الثَّخِينُ الغَلِيظ»[5].

كما يُفسر الأزهري (ت 370هـ) الفعل كثف: فيقول: «قَالَ اللَّيْث: الكثافة :الْكَثْرَة والالتِفاف، والفِعل كثُف يكثف كثَافة، والكثف اسْم كثرته، يُوصف بِهِ الْعَسْكَر وَالْمَاء والسحا ... وَيُقَال :استَكثَفَ الشيءُ اسْتكثافاً، وَقد كثّفْته أَنا تكثيفاً »[6].

وللمعنى نفسه فسر ابن فارس (ت395هـ) مادة كثف التي تدل على التجميع والضغط كما ذهبت باقي المعاجم العربية، فيقول: «كَثَفَ (الْكَافُ وَالثَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرَاكُبِ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ وَتَجَمُّعٍ .يُقَالُ :هَذَا شَيْءٌ كَثِيفٌ. وَسَحَابٌ كَثِيفٌ وَشَجَرٌ كَثِيفٌ»[7].

نخلص من خلال ما ورد في المعاجم العربية حول مادة كثف التي تتعدى للتكثيف أنها تعني التجميع والالتفاف والتكوير والشدّة في الجمع لشيء أو مادة، ومنها جاء مفهوم التركيز والضغط الذي يوظفه النقاد على سبيل المجاز، فنقول: التكثيف الدلالي؛ أي تجميع وتركيز وضغط الدلالات في النص الأدبي، وعلى هذه المعاني اللغوية تأسس المفهوم الاصطلاحي للتكثيف الذي خاض فيه الدارسون والنقاد.

2–المفهُومُ الاصطلاحي:

استرعى مُصطلح التكثيف الدّلالي الكثير من الناقدين والمهتمين بمجال المصطلحات الأدبية والنقدية، وكلّ كانت له نظرته انطلاقا من مطالعاته للدرس الأدبي والنقدي الغربي والعربي، ومنهم محمد حسن عبد الله الذي يرى أنه من أضرب المجاز، فيقول: «فالتكثيف –وهو أهم أسرار المجاز–ليس اختصارا أو ليس اختصارا فحسب، إنه اختصار في سبيل العمق والاطناب —إن صح التعبير– وحرية التصور، بل لقد نظر هربرت ريد إلى أنواع المجاز جميعا على أنها نوع من الإطناب المركز قصد به اختصار صفات الشيء ...وتشير إلى نمو في الحساسية الشعرية، ووسيلة رئيسة في تنمية الذكاء وتنمية اللغة أيضا»[8].

وبذلك يكون التكثيف أحد تقنيات المجاز الموظف من قبل المبدع، في سبيل تحقيق العمق في المعنى والإطناب في الدلالة، ويتقاطع أيضا مع مصطلحات أخرى مشابهة له في العمل والجمالية، دون التشابه

الكلي معها، وهذا رأي أحمد زكريا ياسوف، الذي يقول: «سوف نبتعد عن اختلاف القدامى في المصطلح، فهذه الجمالية اللغوية موزعة تحت عناوين الإشارة، والكناية، والإيجاز، والتلميح، والتلويح، والتعريض، كما أنّ مفهوم الاختزان ههنا لا يطابق الإيجاز كما ورد في كتبهم؛ لأنه يتضمن عندهم الإيجاز في الحذف، كحذف جواب الشرط مثلاً، وقد يعني إيجاز الآية بكليتها، وغايتنا الإيجاز في المفردة فقط»[9].

لقد قصد أحمد زكريا ياسوف الإيجاز في اللفظة الذي يحقق البلاغة والجمالية الشعرية، لا التقنيات الأخرى الموظفة في الإيجاز والاختصار والكناية، فالتكثيف عندهم هو الاقتصاد في الألفاظ، واستعمال الموجز منها والمعبر عن الموقف الشعري بكل احترافية وعمق دلالي.

تناول القُدماء المصطلحات التي تتقاطع مع التكثيف الدلالي في مُصنفاتهم وتعرضوا لها بالشرح والتحليل؛ ومنها الإيجاز والاتساع والإيماء والتعريض وغيرها، وكلها تفيد منح المبدع الاستعانة بألفاظ بليغة ذات عدد قليل مؤدية للمعنى بشكل كبير؛ أي الاقتصاد في اللفظ والإطناب والتوسع في المعاني والدلالات، وهي أحد أسرار البيان في كتاب الله العزيز المسمى بالإعجاز اللغوي والبلاغي والبياني[10]، الذي يهدف إلى« القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى و"البيان والإجمال" و"الإيجاز بالحذف مع الوضوح والطلاوة»[11].

ويُؤكد عبد القادر القط قيمة الصُورة الفنية في تفعيل التكثيف من خلال الاقتصاد في الألفاظ والتوسع في الدلالات والمعاني، فيقول: «الصورة في الشعر هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ، والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص، ليعبر عن جانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والجناس وغيرهما من وسائل التعبير الفني، والألفاظ والعبارات مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني ويرسم بها الصورة الشعرية»[12].

ويَسعى المبدع من خلال التكثيف إلى نقل المعاني والدلالات إلى المتلقي بنص رامز وبألفاظ تسترعيه وتجلب انتباهه وترقى لحالته النفسية، فالنص قادر أن يعايش الحالة الشعورية للمتلقي ويتعايش معها من خلال ما يتوفر عليه من مختلف الآليات اللغوية والدلالية، ويجعله يتفاعل مع النص بإيجابية وجمالية، فيمنحه حياة واستمرارا، وبذلك يؤكد قدرة الأديب على «الصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتجميلات التي تهز الممدوحين وتحركهم وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر، إن التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش والبحث والنقر، فكما إن تلك تعجب وتخلب وتروق

وترنق وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور»[13].

رابعًا–فَاعلية التّكثيف الدّلالي في وَصف الرّبيع:

فعّل الشاعر الشعبي الطبيعة المحيطة به واستفاد كثيرا من لوحاتها وأشكالها وتضاريسها في استلهام الأفكار والدلالات التي شحن بها نصه الشعري، وشدّ بها عضد المعاني المقصودة، حتى تبلغ درجة التأثير في المتلقي ليتفاعل مع أفكاره ويصل إلى الحالة الشعورية والطاقة العاطفية المودعة في القصيدة.

ومن أهم الأدوات الأسلوبية والآليات التعبيرية التي انتهجها شاعرنا من أجل التأثير في المتلقي التكثيف الدلالي في قصيدته الرَبِيْعِيّة، الذي منح النص عمقا وبلاغة، ومكننا من التعمق في ما وراء ذات المبدع واستجلاء مختلف الأحاسيس والمشاعر الخبيئة في نفسه «إنه إحدى المرايا العاكسة لكثافة الشعور المتراكم زمنيا عند الذات المبدعة، يتجمع في بؤرة واحدة ليؤدي أغراضا عديدة»[14].

إن اهتمام الشاعر بشحن نصه الشعري بالدلالات المتنوعة، والسعي لتكثيفها بشكل مضغوط ومضاعف، من شأنه أن يثري «العاطفة ورفع درجة تأثيرها، وتركيز الإيقاع وتكثيف حركة التردد الصوتي في القصيدة»[15] مما يمنحها ثقلا معنويا، وأداء متميزا مشحونا بالعمق والتوالد الفكري.

كما استطاع الشاعر الشّعبي أن يستفيد من اللغة العربية المستعملة بين عموم الناس والقريبة جدا من الفصحى، وذلك بالتركيز على الألفاظ المكثفة التي تحمل معان متعددة وكثيرة، والتي تختلف من متلقي لآخر، وهنا تكمن الكفاءة والمقدرة اللغوية والمهارة الشعرية التي يمتلكها شيوخ الملحون المغاربي، فقد رضعوا العربية منذ نعومة أظافرهم، وعزّزوها بحفظ آيات القرآن الكريم، فتمكنوا منها، واستطاعوا امتلاك ناصيتها، وتطويع أسَاليبها وألفاظها بما يتناسب مع فهم المتلقين من العامة وغيرهم.

وقد اعتمد شاعرنا في قصيدته الرَبِيْعِيّة على مجموعة من المحطات التي ربط بها متلقيه ونقلهم بواسطتها لتجربته الشعرية، مكثفا دلالاته، وعاملا على توالد معانيه، وهي :

1–وَصفُ ولادَة فَصل الرّبيع:

افتتح الشاعر الشيخ الغَرَابْلِي قصيدته الرَبِيْعِيّة بوصف الانتقال من فصل الشتاء بصعوبة أحواله إلى الربيع بفرح أيامه، حيث يمثل وصف هذا التحول عتبة افتتاحية لقصيدته، فقد عمل شاعرنا على تكثيف معانيه والاعتناء بجودتها، انطلاقا من خبرته الإنسانية والشعرية الظاهرة في تراكيب الرَبِيْعِيّة، ويتجلى ذلك جليّا في الافتتاحية التي يقول فيها:[16]

وَاجَبْ الحَمْدْ لمؤلانَا بسرّ وَجْهَارْ بِالمَطَرْ ارْحَمنَا وَتْشَرْحَتْ الخْواطَرْ

وَصَاحَتْ طْبُولْ الرّعدْ عْلَى لْيمينْ وْيسَارْ وَالبرْقْ اَفْرَندْ في زَنْد المزَانْ غَازَرْ
وَالقْزَاحْ نْشَر بَنْدَه بالغُيوسْ بَشّارْ وَالتَقَى بحْريْ وَخْرَجْ عَلَى التيَاهَرْ
منْ أَهْواهَا رنّتْ الأطْيّارْ فَوقْ الأشْجَارْ والأشْجَارْ عْرَايّس وَزَهرْ هَاجْ واهَرْ
الزّهُو نَادَاتْ إيّامُه بِطيّبْ وَسّرَارْ مَنْ فَضَلْ مُولانَا فَصّلْ الرَبيّعْ زَاهَرْ

يحمدُ الشيخ أَحمَد الغَرَابْلِي الله تعالى في بداية قصيدته ويشكره على نعمه الظاهرة والباطنة، ومنها إغاثة الأرض بالمطر النافع الذي به تزدهر الحياة وتحيا، وقد صاحبت الغيث أحواله الجوية المعروفة عند الناس وهي الرعد والبرق، وتعد علامات الخير والبركة عند الناس، وقد استطاع الشاعر بسط مدخل فصل الرّبيع من خلال افتتاحية تهيئ المتلقي لما يقبل عليه من معان، وفيه تكثيف للمعنى وخاصة حين يتحدث عن فرح كل المخلوقات واستبشارها بالرّبيع وجوه، الذي يمثل لها سعة وانفراجا، من فصل صعب تميز بالبرودة وقلة الزرع وضمور الضرع، إلى يسر واعتدال وزهر وزرع فالرّبيع فضل من الله تعالى، وهو المتعارف عليه بين الناس، فالشاعر أفلح في التعبير عن حالة سابقة عسيرة وأخرى لاحقة يسيرة مستبشرة.

وتكمنُ براعة الشاعر في القدرة على الوصف المرتكز المكثف للوقوف بالمتلقي على حالته الشعورية تجاه حلول فصل الرّبيع، والسعي لنقل تلك الأجواء المميزة بالألوان الزاهية والطبيعة الخلابة، وذلك بالتركيز على ألفاظ مكثفة ذات دلالات عميقة موحية، وتتجلى في قوله:[17]

حَمْلَتْ الأنهَارْ بالأَمْطَار والأرض أَرْوَاتْ رَفْلَتْ في بْرُودْ عَبْقَريّ لمّا
وَاحْيّاهَا بَعْدَ مَوْتهَا مُحيّ الأَمْوَاتْ مَثلْ عُرُوسَةْ حْكيّتْ لْبَعْلهَا
وَانْضَمُوا بالسُرُورْ في بْسَاطْ الفَرْجَاتْ حَيّاهَا بالوْصَالْ رَقّاتْ وَرَاقَتْ
حَمْلَتْ مُنهُ بُقْدرْة الحّي الوَارَثْ

إنّ الشاعر ينقلنا إلى مشهد جديد خلاب رغم أننا مررنا به سابقا، لكنه ببراعته وقوته التعبيرية قدمهُ في حُلة جديدة وممتعة من خلال الولوج إلى جزئياته التي تنقلنا إلى عالم جميل ممتع، من خلال تصوير الأنهار والأمطار وتفاعل الأرض معها، وكيف انتقلت من مرحلة الموت إلى مرحلة الحياة والتطور والنماء بفضل الله تعالى، حيث شبهها بالعرُوس التي تزفّ لزوجها بالسرور والفرح وبالوصال فرقّت ورَاقَت، فحملت منه نُورا وبهاء ورقة ونعمة من المولى العزيز الحكيم ووُلد سلطان الفصول الرّبيع جميل الطلعة، وفي ذلك يقول الشاعر الغَرَابْلِي:[18]

بَعدْ حَمْلَتْ وَضْعَتْ فَصلْ الرّبيّع سُلْطَانْ أَميرَا سْعَدْ بهْ أَكْرَمنَا كْريمْ رَاحَمْ
طيّبْ الأَرْضْ بِنَفْحَة منْ جْنَانْ رَضْوَانْ كُلّ بَطْحَة تْهَجِي منْ فزْهَا نْسَايمْ
طَلْقَتْ زَرَابيْ فَوقْ رَوابهَا وَوُطْيَانْ صَنْعَة مُدَبّر الأَشْيَاء خَالقْ العُوَالَمْ
وَتَاقَتْ جُنُودْ انْوَار البيّدْ تَحْصَارْ جَابْدِيْن اعْلامَاتْ العزّ وَالمفَاخَرْ

وَالجوَامَرْ ذَهَبْ وَ فَضّة تْلُوح بّنوارْ طَلَقَتْ مْجَادَلهَا في ظْفَايَر الكْرَايرْ
الزّهُو نَادَات إيّامُه بَطيّبْ وَسْرَارْ منْ فَضْل مُولانَا فَصْلْ الرّبيعْ زَاهَرْ

يُقدم الشاعر المعاني للمتلقي بأسلوب قَصصي مَاتع مُركزا على فكرة جمال فصل الرّبيع، مُستعينا بالتصوير المكثف والدلالات المتلاحقة؛ إذ يُواصل تشخيص الرّبيع مثل مولود بهيّ الطلعة من أم تسمى الأرض، والتي يستمر بوصفها المرأة الولود ذات جمال خلاب، والربيع السُلطان المبجل والأمير السعيد الذي عمّ خيره وانتشر جماله بين ربوع الأرض ففرحت به الطبيعة، لما انتجه وانبته من جنود من الزهور والنوار، فتشكلت حُلة خضراء، وانتشرت زرابي مبثوثة بين أرجاء الأرض عاليّها ورواسيها، صنعة الله بديع السموات والأرض.

ونحن نُطالع الأبيات السابقة نستحضر افتتاحية قصيدة البُحتري التي يتغنّي فيها بإقبال الرّبيع وترحابه به، وكان شاعرنا يقتدي به وبنهجه، حيث يقول البحتري:[19]

أتَاكَ الرّبيْعُ الطلقُ يَخْتالُ مِنَ الحُسنِ حَتى كَاد أَنْ يَتَكلمَا
وَقَدْ نَبه النَورُوز فيْ غَلَس الدُجَى أَوَائلَ وَرد كُنّ بالأمْسِ نُوّمَا
يَفُتّهَا بَرد النّدَى فَكَأنّهُ يَنْبُتُ حَديثًا كَانَ قَبْلَ مُكتَمَا

2-وَصفُ الأَزهَار وَالوُرُود:

افتتح الشاعر الرَبِيْعِيّة بالترحيب بالفصل المزهر لينتقل إلى وصف مفصل للرّبيع مركزا على الأزهار والنوار والورود المميزة بألوانها وأشكالها ورائحتها، ومتغنيا بجمالها وتنوعها، ومشكلا بتنوعها وتعددها صورا شعرية بديعة، تكشف عن نفس راقية ومشاعر رومانسية واحتفاء بالمتلقي وذوقه.

وقد استطاع الغَرَابْلِي تلخيص حُلول الرّبيع على الأرض بألفاظ منتقاة ومعان مُكثفة تعكس دقة تصويره وجميل تعبيره، كما تُؤكد قدرته الفائقة على تفعيل جميع الخيارات اللّغوية التي بين يديه، وسعة خياله مما جعله يُعبر عن هذه اللوحات الفنية بتعابير دقيقة مُكثفة ومعان عميقة، مما ينقل الملتقي إلى ما يراه ويشعر به، ويتجلى ذلك في وصف أزهار الرّبيع فيقول:[20]

شُوفْ المَخْبيرْ شيّد في البْطَاح اَعْلُومْ خَبرْني بِالْسُرُور وَغْنَى وَغْنَايَمْ
والخيْلي منْ تبَاعَةْ الوَرْدْ المعْلُومْ بِالنّصْر عْلَى الجُنُودْ سُلْطَانْ وحاكم
وَالعَدْرَة اليّاسمينْ تَهدِيْ لِهْ اَشْمُومْ وَالخَابُورْ التّحَيلْ يَنْصفْ بِاغْرَايَمْ
وَالنَرْجَسْ لْلْسُرُورْ جَنْدُه مْتَلايَمْ
العَشَيقْ وَمَعْشُوقْ مَعْ البْدا في تَبْسَامْ بَيّن يَاسْ وَنَسْري وَالبّان لَه وَالَمْ
وَالشقَيرَة وَالضّيّالَة وِرْد الحْزَامْ جَار فَنْ سُوسَانْ مْتَوّجْ العْمَايمْ
وَالحُكْم مَتْوَلي بَيّن الجْنُودْ الحْكَامْ وَالبَهْر وَالبَهجَة يَهْدُيُوا طَيّبْ ناسَمْ

بَن الْفِجِيْجْ وَالزَوِيّونْ وَالبَابْنُوجْ فِيْ حضَارْ وَالزهَر في غْلاهْ عْلَيهُم غَرِمْ اذْنَانَرْ
قَيْقْـلانْ وَطُمَاجْ المجَاوْرَه الجُلارْ وَالعَطْرشَة فَاحَتْ بِنَسيّمْهَا العَاطَرْ

بعدَ أن وَضع الشاعر المتلقي في أجواء فصل الرّبيع ينتقل به الآن في هذه الأبيات ليعرض عليه أنواعًا من أزهاره، محملا إياها رؤاه الفنية وسَاكبا في قوالبها ظواهر شعره الأسلوبية، فيُخاطب المتلقي بأمر (شُوْفْ) وغرضه لفت الانتباه إلى تلك الأزهار، والتي قام الغَرَابْلِي بمعاينتها وهي: المخْبيزْ، الخَيّلي، الوَرْد، اليَاسَمِينْ، والخَابُورْ، يَاسْ، النّسْرَي، البّانْ، الشّكيرَة، الضّيّالَة، وَردْ الحزَام، البَهْرْ، البَهْجَة، بَن الْفِجِيْجْ، الزَوِيّونْ، البَابْنُوجْ، العَطْرشَة، والاستعانة بجمالياتها المادية الظاهرة والمعروفة، للارتقاء بأفكاره وتلوينها بالبلاغة والإيجاز، وتعبئة تلك المرجعية التي يمتلكها القارئ حول الأزهار بالدّلالات المختلفة المعبرة عن حالته والواصفة لموقفه، وهذا ما يؤكد تقديم الشاعر لصور متنوعة من الزهور التي لا يكتف بذكرها بل يَصفُ وُجودها في الطبيعة وجمالياتها القريبة جدًا من مخيلة المتلقي.

ولعلّ المعاين لقصيدة الرَبِيْعِيّة يجد توظيفا واسعًا للأزهار، ممزوجا بوصف دقيق لها وتشخيص لوجودها؛ إذ استخدم الشاعر ألفاظا موحية ومعبرة عنها، فنشم عطرها ونستنشق رائحتها الزكية من أجواء القصيدة، وهذا من استراتيجيات تشكيل صُوره الشعرية، وعمق الدلالات المكثفة، التي تتجلى بالتركيز على الأزهار المميزة لفصل الربيع فيقول:[21]

نُوَارْ الخَيْزرَان حَولْ الشّمسْ يْدُورْ وَالشّاكُوكِي مَع لخْمَاسِي في جْوَارُهْ
ومضَل المُلُوكْ للْزّهُو بَنْدَه مَنْشُورْ وَمَشْرقَيّة عَن يْمِيّنَه وَيْسَارَهْ
وَالدَيّدِيْ كِغْلامْ للْطَاعَة مَشْمُورْ وَالتيّقَفّة مْثِيلْ عَدْرَة خُتَـارَهْ
لَبْشَارتهَا الشْقَيقْ يَعرَم دِيْنَارَهْ
مْدَيلكَة لَبْسَتْ منْ البْهَا ثْيَابْ صَفْرَهْ غَارَتْ منْ الزْفَرَانة خَدّها في تَعْكيْرْ
وَالمدَيْدَسْ فِيْ جْوَارْ غَاليّة وَجمّرَهْ وَالنّويْنَسْ وَالطفْس مَع نُوَارْ الحَرِيرْ
وَالزْرَيّرَيقْ للْمِيّر وْزِيّر منْ الوَزْرَهْ رَاحَفْ الجَلْبَابْ عَلى اليّرقَانْ الغْطِيّرْ
وَالنَخْل لَيّه قْلايّدْ منْ عْقُودْ الأثْمارْ وَالدّوَاليْ لَبَسَتْ منْ عَبْقَريّ ضْفَايّرْ
وَالبّطَايّح تَمثيّلْ زْمُرُدَة في تَخْضَارْ وَالنّحَلْ يَرْعَى في نْوَاوْرْ الغْفَى البَاهَرْ

يَسعَى الشيخ الغَرَابْلِي إلى إحاطة المتلقي بأنواع كثيرة ومتعددة من الزهور التي تحتفي بها الأجواء الرَبِيْعِيّة، وهذا دلالة على ثقافته الواسعة في مجال الزهور وأسمائها التي مازال اسم بعضها يتداول ليوم الناس هذا، والآخر لم يعد يستعمل أو يذكر، أو غيّر باسم آخر، فقصيدة الرَبِيْعِيّة هي تدوين لهذه الأسماء المندثرة من قواميس استعمالنا اللغوي وحتى من حدائقنا.

كما نقل شاعرنا باحترافية بلاغية تفاعل وحوار الأزهار والورود بعضها مع بعض، مُضفيا عليها صفات الإنسان لنقل جمالها وحيوتها للمتلقي، وكأنها في مجلس أُنس تتبادل أطراف الحديث؛ "فنُوارْ الخَيْزْرَانْ" الذي يتابع الشمس أينما ذهبت ودارت يدور، "الشَاكُوكِي" ينعم بجوار لخماسي، ومُضَل المُلُوكْ سعيد والمشّرقية عن يمينه ويساره، و"زَهْر الدَيّدِي" مثل الغلام المطيع فهو يتمايل شرقا وغربا، و"التَيْقَفَةْ" مثل العذراء الجميلة في خذرها، "وَزَهْرَة المدَيْلكْ" لبست ألوانا باهية زاهية صفراء، حتى غارت منها "زَهْرَة الزَفَرانة" والدليل خدها شديد الحمرة والنّخل توشح بقلائد من ثمار كناية عن عراجين التمر، والدَوَالي (أَشْجَار العِنَب) تشكلت في لباسها على شكل ضفائر، "وَوَرْد البَطَايَحْ" مثل حجر كريم (زُمرد) في لون أخضر.

إنّ هذه الأوصاف الجميلة التي ألبسها شاعرنا الغَرَابْلِي للأزهار والورود توحي بالدلالات التي يسعى الشاعر لشحنها وإيصالها للمتلقي، مُستعينا بتقنية التشخيص للوقوف على عمق تلك الجماليات التي عاينها، وبذلك يكون قد نجح في رسم صوره وتشكيل أفكاره وشحنها بالمعاني، التي تغني عن الاستطراد والتعليل والتفسير، وتجعله يقصد الفكرة بالإشارة والتلميح الجمالي المتواصل، إنّ «هذه الحرية المتاحة في التلقي جزء أساسي من اللّذة الفنيّة. إنّ تحريك واستدعاء وتفاعل الصور والأفكار والتجارب في لا شعور المتلقي وإثارتها من خلال عناق وصدام الصور المبدعة فنيا يولد إحساسا خاصا بالمشاركة حتى من خلال التضاد»[22].

وما يؤكد توجهنا في نقل صور الأزهار للمتلقي بطريقة موحية ممزوجة بالدلالات المكثفة، قوله:[23]

صَبّ نْسَيّم الصَبّة عْلَى رَوضَة اللّقَاحْ وَأَرْوَاتْ منْ المزَانْ وَالنّهر السَايّحْ
مَاسُوا وَتْعَانْقُوا عْرَاشْ منْ الدّوَاحْ وَأصْبَحْ حبّ النّدَى عْلَى الورَقْ اللاقحْ
رُمَانْ وَبُرتَقَالْ وَتُرنّج وَتُفَاحْ تَيّن وَزَيتُونْ جَاوُرْ الخَوخْ الطَافَحْ
كُنْ ثُرَيا لَها منْ الطُعُم مْصَابَحْ
فيْقْ يَا سَاهيْ تَنْظَرْ مَا يَسّر الأَلمَاحْ مَنْ ثمَارْ الاّ يحصَيّهَا عَقيّل رَاجَحْ
شُوفْ زَهَر الرّوضْ بِطَيّب الأرْوَاحْ شُوفْ زَهَر الرّيحَانْ مْثَيلْ درّ وَاضَحْ
شُوفْ البَلَنَزْ إيْميسْ مَع هُبوبْ الأرْيَاحْ شُوفْ نُوَارْ اللّوزْ مُعمّر الْسّوَايّحْ

إنّ اعتناء شاعرنا المكثف بالأزهار في الرَبِيْعِيّة يعكس وعيه بالقيمة الجمالية والفنية لمعاني النبات خصوصا والطبيعة عموما في توليد الدلالات، وحشد الكثير من المعاني التي تؤكد جمالية خطابه الشعري الذي من شأنه الارتقاء بخيال المتلقي والتأثير فيه، فشاعرنا في قصيدته لم يكن «باحثا عن المجهول بقدر

ما كان مراعيا للصقل والترتيب والصنعة والمحافظة على النظام، والميل إلى تصوير الكليات العامة، التي يشترك في فهمها الناس جميعا»[24]

3-وَصفُ الطُيُور :

إنّ وصفَ الرّبيع وأجوائه مثلما اقتضى منّا الحديث عن الزهور والورود التي شكلت لوحاته الفنية الماتعة، بمختلف أشكالها وألوانها، يقتضي الحديث عما يصاحبها من طيور، وهذا ما عمل عليه شاعرنا الغَرَابْلِي؛ إذ لم يتوقف في رسم صوره البديعة عند الأزهار بل أضاف عليها ما يحيط بها من حياة أخرى، وتتمثل في الطيور والحشرات مثل النحل الذي أينما وُجد الزهر وُجد، ليؤكد شَساعة ثقافته وامتلاكه لمعجم ثري للطيور، بصور جمالية وملفتة للانتباه، حيث يقول:[25]

الأَطْيَار في كُلّ حينّ تَتْجَاوَبْ بَطْبَاغْ عَرَقْ اَعْجَمْ وَالحَقَازْ وَالرّصدْ وَحمدَانْ
بُوحْ وَسُمريْس رَصّعْ المَايَا تَرّصَاغْ وَالحدّادْ الحْرَيزْ يَنْشَدْ بصَبْهَـانْ
وَالحَرْبَل وَالهزَارْ وَالبْلبُل سَمّاغْ وَالزّندْ يَنْشَدْ اللّغَى بَطبَعْ زَيْدَانْ
وَكُلّ السرّ وَالبّها لأُم الحسّانْ
هَيّـجْ الكنّار أُم اقْنيّن بالوّلاعَة لأنّه تَلميّذَه رَاوّي عْلَيه الأَوْزَانْ
وَاليّمَام يَبَدلْ الأطْبَاع بالسْرَاعَة ضِدّ لَيّمَام الَفَخْتَ يجَاوْبُه بِتَحْنَانْ
كُلّ وَقتْ يّقِيّمُوا حَضرَة وَ كلّ سَاعَة يجدْدُوا في التّسبيْحْ لربّنَا الرّحمَانْ
وَقتْ يَتخَلَى الفَجرْ عَن ظْلامْ الأسْحَارْ يَنْشدُوا بَطبّاغْ اللّي حَقهُمْ شَاعَرْ
صَبحَتْ أزْهَار الرّوضْ مَبَسمَة بِالثْغَاْرْ عَايمَة في نْدَاهَا وَتُجودْ بالبْشَايرْ

من خلال الأبيات السابقة يستكمل شاعرنا رسم لوحته التصويرية بعد تزيينها بمختلف الأزهار والورود من الطبيعة الخلابة، ها هو يضيف لها أنواعا متعددة من الطيور المغردة، التي تجاوبت بكل فرح وسرور مع الطبيعة ومائها ودورها وأشجارها؛ فأينما وجدت الأزهار والمياه حضرت الطيور المتفاعلة مع ألوان الربيع بأصواتها وحركتها وحيويتها، فالأذن تسمع تغريدها قبل رؤيتها.

ويعرض الغَرَابْلِي على المتلقي مجموعة من الطيور المزينة لأجواء الرّبيع، ومنها: (عَرَقْ أَعْجَمْ، الحقَازْ، الرّصَدْ، حَمدَان)، التي علا صوتها في أرجاء الطبيعة الرَبِيْعِيّة، وطير (البُوحْ، سمْرَيسْ)، رصّعوا الأشجار وملأوا الأرض بألوانهم الزاهية، وينشد بالأغاني (الحْدَادْ الحْرِيزْ)، ويتعالى صوت(الحربَلْ، والهزار، والبُلبُل، والزند) بالأناشيد التي لها وقع جميل على الأذن، وحظيت طائر (أم الحْسَان) (أمْ الحسَنْ) بالجمال والدلال ففاقت أقرانها من الطيور، وأثار طائر (الكَنَارْ) طائر (أُمْ اقْنينْ) بغنائه، فراح يحاكيه ويبدع أكثر منه صوتا وغناء،

وتابع طائر (اليَمَام) الأنغام معبرا فيها ومنوعا في موسيقاها ونوتاتها بجمالية وإبداع منقطع النظير، مما شكل مشهدا جماليا ممتعا، بسنفونية موسيقة تعزفها طيور الربيع المتميزة.

أطلعنا الغَرَابْلِي على أسماء كثيرة للطيور من خلال قصيدته، منها ما يزال مستعملا والآخر ظلّ حبيس الذاكرة، وهذا يكشف ثقافته المتعددة والمتنوعة حول الطبيعة وألفاظها، حيث عدد لنا الكثير من الأسماء التي عرفت في البيئة المحلية مثل (اليَمَامْ) و(الحدَادْ) و(الهَزَارْ) (أُمْ الْحَسَنْ) وهو طائر لونه أحمر و(المقْنينْ) ذي اللّون الأصفر، و(الْبُلْبُلْ) مبيّنا تفاعل الطيور بعضها مع بعض، وأثرها في الطبيعة والزهور، مما شكل لوحة فنية جميلة تلمحها كل حواس المتلقي.

وقدّم لنا الشاعر قاموسا متكاملا يضم أسماء الطيور التي تزخر بها الطبيعة المغاربية، وتحتفظ بصورها وتغريدها ذاكرة العامة، وقد اعتاد الناس على رؤيتها في الطبيعة والتمتع بمنظرها وسماع أصواتها المغردة في بساتينهم وحدائق منازلهم، ويمكن ارجاع غرابة الأسماء التي سردها شاعرنا إلى تطور المجتمع من البداوة إلى المدنية، وموت هذه الأسماء رغم الوجود القليل لهذه الطيور واقتصاره على الغابات والجبال النائية، فانصرفت الأسماء القديمة للزوال والاندثار، لكنّ القصائد التي تتغنى بالربيع حافظت على قاموس لغوي ثري وعلى الأسماء المحلية التي كانت متداولة، ويمكننا إحياؤها وبعثها من جديد، لصلتها بالفصحى ولفعالية دلالتها اللغوية، فهي إرث لغوي يمثل ثقافتنا الشعبية المتنوعة.

وقد أبدع شاعرنا من خلال كثرة الدلالات التي أجاد تطعيم قصيدته الرَبِيْعِيّة بها، فتوالدت المعاني العميقة المعبرة عن جمالية الصورة المتكونة من الطيور والزهور والورود، بإضفاء الحيوية والحركية على المعنويات، وشحن نصه بالدّلالات المكثفة والمعاني العميقة التي تنقل الحدث مشخصا وكأنه يُعرض أمامنا مباشرة.

4-ختَامٌ بالصّلاة والسّلام على رَسُول الله صَلّى الله عَليه وَسَلّم:

ينتقلُ الشيخ الغَرَابْلِي بعد تصويره للأزهار المترامية في الطبيعة والطيور المزينة لسماء وأشجار الرّبيع، إلى التغني بالصّلاة والسلام على النبي كخاتمة للربيعية، التي نقلت لنا مشاهد ممتعة وجميلة عايشنا من خلالها الحدائق الغناء، فالشاعر يرى أن هذه الطبيعة فيض من نور محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول:[26]

الزّهُو نَادَاتْ إِيَامُه بْطيّبْ وَسْرَارْ	منْ فَضْل مُولانَا فَضْل الرّبيْع زَاهَرْ
لُوجُودْ المصْطفَى أَحْمَد زَهرْ الأزْهَارْ	جْرَاتْ نهَارْهَا وَنَاحَتْ كلّ طُيّورْ
منْ نُور حْبَيبْ رَبّنَا شَرْقَت الأنْوَارْ	لوجُودْ كُلّ كُونْ خَاليْ وَالمعْمُورْ
لَولا هُو مَا تْكُون جَنّة ذَاتْ ثْمارْ	وَقْصُورْ منْ الجيْنْ وَولدَانْ وَحُورْ

صَلَى الله عْلَيهْ عَدّ النْجُومْ تْنُورْ

تمثلُ هذه الأجواء التي ينقلها لنا الشاعر مشهدا من الفرح والسرور الذي يتفاعل معه المتلقي، وهو فضل من الله الذي أنعم علينا بالطبيعة الجميلة الخلابة وبعناصرها من أزهار متنوعة وطيور متعددة، والتي تؤثر فينا وننجذب إليها دون شعور، فهي صورة كلية من الطبيعة، متكونة من جزئيات كالفسيفساء المشكلة للوحة كبرى، وتمثل الصنعة الجمالية «المبتكرة والرؤية المميزة والتجربة الموحدة والقدرة على استحضار الغائب وتجسيده في علاقات عفوية، توحد بين المتعارض والمتباعد في صورة جديدة تعمق الأثر الشعري والفكري لدى المتلقي»[27].

يُؤكدُ الغَرَابْلِي أنّ هذه النّعم التي حَبانا الله بها هي من فضله تعالى لوجود سيد الخلق أجمعين سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، فقد تفتحت كل زهور الربيع وجرت مياه الأنهار وغنّت الطيور فرحا بالحبيب المصطفى؛ إذ هذه الطبيعة فيضٌ من نوره صلّى الله عليه وسلّم، وهي جزءٌ لا يذكرُ أمام جنة الرضوان التي أُعدت وخُلقت لسيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم ولأمته.

يُواصل شاعرنا الاحتفاء بالصلاة والسلام على نبيّنا المختار، وهو تقليد معروف لدى شعراء الملحون في النظم، حيثُ يركزون في الافتتاحية على حمد الله تعالى والصلاة على النبي، وبالطريقة نفسها يكون الاختتام، وهذا ما يسير وفقه شاعرنا، فهو يتبركُ بالصلاة على النبي لإنهاء الرَبِيْعِيّة، مُعرجًا على الشمائل المحمدية وفضله على البشرية الجمعاء، وشكر الله تعالى على المبلّغ والرسالة، حيث يقول:[28]

الصّلاةْ عْلَى منْ جَانَا بْشَيرْ وَنَذيرْ بالرّسَالةْ وَكتَابْ الدّينْ دَينْ مَشْهُورْ
قَادْنَا المنَاهُجْ القْويمْ دُونْ تَعْسيرْ بَعدْ كنّا في ظْلامْ الجَهْل وَضّحْ النُورْ
نُورْ طَه منْ بهْ قْلُوبنَا في تَهييرْ سَاعَدنَا بِوجُودْهْ طَابْ الأَفرَاحْ وَسْرُورْ
سَاعَدنَا بِعْرِيسْ الجنّة إمَامْ الأبْرَارْ سيّدنَا محُمد المجبّر المكَاسَرْ
وَاجَبْ نَفْرحُوا لوجُودُه كْبَار وْصغَارْ منْ علّينَا فَضْلُه بيّن الغْبَاذْ شَاهَرْ
الزّهُو نَادَاتْ إيّامَه بِطيّبْ وَسْرَارْ منْ فَضْل مُولانَا فَصلْ الرّبيعْ زَاهَرْ
منْ منّة رَبّنا اكْرَمنَا وَارْحَمنَا بالهَاديْ كَوكَبْ البّهَا بَعثُه فِينَا
آمنّا بهْ دُونْ ريّب وَصْدَقْنَا ويْكُونْ شهيّد يَوم الحْسَابْ عَلّينَا
وَفضَل الوَاه بِالجَميّع يَضَللنَا وَمنْ حَوضُه إلاّ ضَميّنَا يَسقّينَا

يَا مَسعُدَنا بسيّد الأَسْيَاد نَبيّنَا

يُضفي شاعرنا من خلال الأبيات السابقة أوصافا جليلة على سيّد الخلق أجمعين في شكل مدح نبويّ خالص غرضه طلب البركات والحسنات من المولى عزّ وجل، وشكره تعالى أن وفقه في قصيدته الرَبِيْعِيّة، تيمنا بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وفضله على البشرية جمعاء، ويختم القصيدة بقوله:[29]

يَا سعَداتْ منْ جَادْ عْلَيّه نِعمَ جَوّادْ	نَالْ طيّبْ المَقْصوُدْ وَفَازْ بالسَعَادَةْ
لَيْك نُتوسَلْ يَا رَبيّ بِسيّد الأَسْيَادْ	لا تْوَاخُذني بِالنّقصَانْ وَالزّيَادَةْ
جِيْزْنَا وَحْفَظْنَا منْ كَيْدْ قُومْ حُسَادْ	لا صْلاحْ اَدْرَكنَا مُنهُمْ لا إيْفَادَةْ
يَالحَافَظْ وَضّحْ اسّمي فيْ رَمزْ	رَايّسْ اللّغزْ أحْمدْ الغَرَابْلِي المَاهَرْ
والسّلامْ انْهيبْه مَا فَاح طيّب الأزْهَارْ	للأَشْيَاخْ وَطُلْبَة وَأَهْل النّبي الطَاهَرْ
وَالصّلاةْ وَالسّلامْ عْلَى شَريقْ الأَنْوارْ	سيّدْنَا مُحمد نُور البّهَا الزّاهَرْ

يتوجه الشاعر لله تعالى بأن ينعم عليه بالسعادة في الدارين، متوسلا إليه أن يغفر ذنوبه وأن لا يؤاخذه في نقصان أو زيادة في الدين، وأن يجيره من الحاسدين الحاقدين عليه، موثقا اسمه الشيخ أَحمَد الغَرَابْلِي، مُصلّيا ومُسلّما على النبي المختار.

يأتي شاعرنا على نهاية الرَبِيْعِيّة التي قدم فيها للمتلقي لوحات فنية ممتعة من الطبيعة كان فصل الرّبيع موضوعا لها، وكانت الأزهار الملونة ورائحتها الطيبة حاضرة لا تغيب في المشهد الربيعي المعروض، والطيور تحلق في سمائها بمختلف أنواعها متخذة وضعيات مختلفة فوق الأشجار وأغصانها، ليزين المشهد الشعري بالصلاة والسلام على المختار محمد صلّى الله عليه وسلّم ومدح أخلاقه وصفاته الخلُقية والخلّقية التي هي نُور في الدنيا والآخرة.

لقد شحنت قصيدة الرَبِيْعِيّة بالكثير من المعاني السامية والدلالات الموحية، العاكسة لثقافة الشاعر وقدرته الشعرية ومقدرته على النظم وفق تقاليد الشعر الملحون المغاربي، كما عكست ثقافته الأدبية والشعبيّة الواسعة.

خامسا–خَاتمة :

من خلال دراستنا للتكثيف الدلالي في وصف الرّبيع ومعانيه في قصيدة الرَبِيْعِيّة للشيخ أَحمَد الغَرَابْلِي نقفُ على النتائج التالية:

1–استطاع الشاعر أن يلتزم بتقاليد النظم في القصيدة الشعبية المغاربية من خلال الافتتاحية والاختتام، والاستعانة بالثناء على الله تعالى ومدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

2-نجح الغَرَابْلِي في تصوير مختلف أنواع الزهور بمختلف ألوانها وأشكالها، وجعلها قريبة من المتلقي وكأنه يلمسها ويراها ويشم رائحتها، وبذلك شحن قصيدته الرَبِيْعِيّة بكثافة الدلالات المعبرة والمعاني الموحية التي نقلت تجربته الشعورية للمتلقي.

3-تمكن الشاعر من تقديم معجم ثري من الزمن الماضي يتضمن أسماء الأزهار والطيور التي كانت معروفة في البيئة المغاربية عموما، وبذلك الحفاظ على هذه الأسماء التي اندثر بعضها لعدم وجوده في الاستعمال اللغوي الحالي.

4-القصيدة الرَبِيْعِيّة لوحةٌ فنيةٌ كبرى لفصل الرّبيع، استطاع الشاعر أن يرسمها بخبرته الشعرية وألفاظه الموحية، معتمدا على تكثيف الصورة والعناية بها، وامتلاكه لقاموس لغوي شعبي ضخم يمكنه من التواصل مع المتلقي ووضعه في مستوى مشاعره وأحاسيسه بكل احترافية ومقدرة فنية.

هوامش:

1-هو الشيخ أحمد الغرابلي، أحد شعراء الملحون المشهورين والمشهود لهم بالبراعة والصناعة في نظم الزجل والنظم، من أهل فاس، ظهر في أواخر القرن 19، عاش أيام السلطان الحسن الأول وأدرك السلطان عبد العزيز، نظم في مختلف الأغراض خاصة الهجاء والوصف والمدح النبوي، وله مكانة مرموقة بين شعراء الملحون في المغرب العربي لجودة قصائده، وجمالية تعابيره وقدرته الفائقة على النسج والنظم في الأشكال الشعرية المعروفة، من أشهر قصائده: اللطفية، التوسل، في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ربيعية، الحجام، الياقوت...، توفي 1340هـ بفاس (ينظر: الشيخ أحمد الغرابلي، الديوان، (2012)، جمع وإعداد لجنة الملحون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية، إشراف وتقديم عباس الجراري، سلسة تراث، موسوعة الملحون، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، (الرباط)، مقدمة الديوان).

2-الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، (1989) تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي، دار مكتبة هلال (بيروت)، ج 5، مادة: كثف، ص 51.

3-محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (2005)، دار الفكر (بيروت)، ج5، مادة: كثف، ص 300.

4-محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، (1414هـ-1994م)، دار صادر (بيروت)، ط3، ج 9، ص 96.

5-المرجع نفسه، ج 9، ص 96.

6-الأزهري، تهذيب اللغة، (2001)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ط1، ج 10، مادة (ك ث ف)، ص 105.

7-أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، (1399هـ- 1979م) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر (بيروت)، ط1، ج 5، مادة (ك ث ف)، ص 161.

8-محمد حسين عبد الله، الصورة والبناء الشعري، (1981)، دار المعارف (القاهرة-مصر)، ص 128.
9-أحمد زكريا ياسوف، دراسات فنية في القرآن الكريم، (2006)، دار المكتبي (سورية)، ط 1، ص 496.
10-للتوسع في مصطلح التكثيف البلاغي ينظر: أحمد محمد إدعيس دعسان، (التكثيف البلاغي في القرآن الكريم –جزء عمّ- دراسة بلاغية أسلوبية)، 2008، رسالة ماجستير، جامعة الأردن/ الأردن، ص 4-9.
11-محمد دراز، النبأ العظيم، (2006)، دار المكتبي للنشر والتوزيع (سورية)، ط 1، ص 109.
12-عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، (1978)، دار النهضة العربية (بيروت)، ص 435 .
13-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، (1981)، صححه وعلق على حواشيه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر (بيروت)، ط 02، ص 297.
14-فهد ناصر عاشور، التكرار في شعر محمود درويش، (2004)، دار الفارس (الأردن)، ط 01، ص 11.
15-محمد بن أحمد وآخرون، البنية الإيقاعية في شعر المناصرة، (1998)، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين (القدس)، ص 83.
16-الشيخ أحمد الغرابلي، الديوان، (2012)، جمع وإعداد لجنة الملحون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية، إشراف وتقديم عباس الجراري، سلسة تراث، موسوعة الملحون، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة (الرباط)، ص 143.
17-المرجع نفسه، ص 143.
18-المرجع نفسه، ص 143-144.
19-صالح حسن اليظي، البحتري بين نقاد عصره، (1982)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت)، ط1، ص 92.
20-الشيخ أحمد الغرابلي، الديوان، ص 144.
21-المرجع نفسه، ص 144-145.
22-محمد حسين عبد الله، الصورة والبناء الشعري، ص 129.
23- الشيخ أحمد الغرابلي، الديوان، ص 145.
24-محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القيم والحديث، (1979)، دار النهضة العربية (بيروت)، ص 52.
25- الشيخ أحمد الغرابلي، الديوان، ص 145-146.
26- المرجع نفسه، ص 146.
27-إبراهيم رماني، الغموض في الشعر الحديث، (1991)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون (الجزائر)، ص 15.
28- الشيخ أحمد الغرابلي، الديوان، ص 146-147.
29- المرجع نفسه، ص 147-148.